بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نشأ محمود سامى البارودى فى عصر انقطعتْ فيه الصلةُ بين الشعراء فى جميع الأقطار العربية وأسلافهم القدماء انقطاعًا أخلَى أشعارهم من كل نَضْرَةٍ وكل رُواء ، فإذا هى لَغْوٌ من القول وما يشبه اللغو ، يتكلفونها ليقدموها مديحًا وتهنئة وتعزية لمن يظنون أنه يدفع عنهم عاديات الحياة . ومن العبث أن نبحث فى هذا اللغو عن شعر أو شعور بالجمال ، يبعث فى نفوسنا اللذة الفنية ، إنما هى معان سقيمة وأساليبُ فاسدة زادتها أشواك البديع وأعشابه فساداً على فساد .

ولم تكد تتفتَّح موهبة البارودى حتى انصرف عن هذا اللغو المنظوم إلى روائع الشعر العربى القديم يُسيغها ويتمثَّلها بكل ألحانها وكل تصاويرها وكل معانيها وأسرارها الفنية . وسرعان ما استخلص لنفسه هذا الرَّحيق الصافى العذب الذى يفيض به ديوانه ، يَسْنده قلب ذكى وإحساس مرهف وذوق دقيق ، وهو رحيق يغذِّيه القديم بخير ما فيه ، ويغذيه وجدانه وعصره وقومه . وبذلك لم يَعُدِ الشعر تعبيراً سقيماً عن أغراض ضيقة لا تصوِّر منشأ الشاعر ولا ظروفه ولا زمانه ولا أمته ، ولم يعد يَجْرى فى ركاب صاحب سلطان أو جاه أو مال ، فهو لا يُتَّخَذُ وسيلةً لمآرب مادية ولا زُلْفَى للحكَّام والأثرياء ، بل يتَّخذ للتعبير عن أحاسيس صاحبه ومشاعر قومه تعبيراً حيًّا خِصْبًا دون أىِّ مساس بحرية صاحبه أو كرامته .

وعلى هذا النحو مضى البارودى يَشِبُ بالشعر وَثْبَةً لم يكن يحلم بها معاصروه ولا كانت تمرُّ بخواطرهم ، وهى وثبة جعلته يُعَدُّ — غير مدافَع — رائدَ الشعر الحديث والممهدَ الأول لنهضته ، فقد فكَّه من قيوده البديعية الغليظة وأغراضه الضيقة المحصورة المبتذلة ، ووصَله بروائعه القديمة وصياغتها المحكمة الكاملة ، كما

وَصَله بحياته وحياة أمته وَصْلاً مخلصاً صادقا أميناً ، وَصْلاً يَرْقَى به إلى مرتبة الشعر الرفيع الذى يُمْتع القلوب والعقول والأفئدة .

وقد رأيت أن أفْرد هذا الشاعر المبدع ، الذى يُعَدُّ أبًا للشعر الحديث ، بدراسة مفصَّلة ، أصور فيها عصره وحياته وشعره ومنزلته. وبدأتُ بالعصر فتحدثتُ عن البَعْث القومى لعهد محمد على وما أقيم دونه من عقبات ، وكيف أخذ خلفاؤه من بيته ، وخاصة إسماعيل ، يدفعون البلاد إلى هاوية الانهيار السياسى والاقتصادى ، حتى إذا كان توفيق أتمَّ فصول المأساة باستدعائه جحافل الإنجليز لحمايته ، فاحتلوا البلاد ، ولم تلبث القوى الوطنية أن التفَّتْ حول لواء مصطفى كامل وقاومتْهم مقاومة باسلة . وعلى الرغم من هذه المحن والخطوب تابعتْ مصر خُطَى تطورها الفكرى والأدبى طوال القرن الماضى على يد صَفْوَة ممتازة من أبنائها النابهين أمثال رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده وقاسم أمين . وأسرع النثر فى التطور ، بينما أبطأ الشعر ، حتى أتيح له البارودى ، فنهض به نهضة حرَّرته من أساليبه السقيمة وأغراضه الغثَّة ، وعادتْ به إلى أساليبه الطبيعية القديمة المونقة التى يؤدى بها الشاعر أداء طبيعيًّا مستقيماً حقائق نفسه وحقائق أمته .

وانتقلتُ من عصر البارودى إلى حياته ، فتحدثت عن نشأته ومَرْباه وعكوفه على ينابيع الآداب العربية وتعلمه بالمدرسة الحربية وتوظفه بوزارة الخارجية فى الآستانة ونَهَله هناك من الآداب الفارسية والتركية ، وكيف عاد إلى وطنه والتحق بسلاح الفرسان وأسْهَم مع بعض الكتائب المصرية فى حروب العثمانيين بجزيرة كريت . وكان يتقلَّب فى أعطاف الهناءة ورَغَد العيش ، ففاض شعره بالحماسة والحب والخمر ووصف الطبيعة . وأُلحق بعد عودته ياورًا بالقصر ، فرأى عن قُرْب مباذلَ إسماعيل وفساد حكمه ، فثارت نفسه واضطرَّ إلى كَظْم ثورته وأخذ يَسْرى فى شعره ضرب من الكآبة . وانتظم ثانية فى الجيش ، واشترك فى الحملة التى أرسلت لمساعدة العثمانيين فى حروبهم بالقَرْم والبلقان . وعاد إلى مصر وقد تلبَّدت سماؤها بالغيوم والنُّذر ، ولم يلبث أن انضم إلى الجيش والشعب فى ثورتهما على توفيق بزعامة عرابى ، ناطقًا بآمال الوطن وآلامه . وتتعاقب الأحداث ، فيحتلُّ الإنجليز مصر ، ويُسْهم فى مقاومتهم ، ويُنْفَى إلى سرنديب ، فيظلُّ

بها سبعة عشر عاماً كالطَّوْد الشامخ لا تَهن قُواه ، يتغنَّى غناء حزيناً يصبُّ فيه آلامه وأوصابه . ويُؤْذَنُ بأخرة له أن يعود إلى فرْدَوْسه ، ولكن قيثارة الشعر لا تلبث أن تَسْقُطَ من يده ،وتنطفئ شعلة حياته .

وقد مضيت أصوِّر شعره فوقفت عند العناصر المكونة لشاعريته ، وهى عناصر متشابكة ، منها ما يعود إلى موهبته الشعرية النادرة ، ومنها ما يعود إلى وراثاته وتعلمه لفنون الحرب وتزوده بالآداب العربية والفارسية والتركية ، ومنها ما يعود إلى بيئته ومشاهدها الطبيعية وأمجادها التاريخية وأحداثها السياسية وتجاربه المختلفة فى رحلاته ، ومنها ما يعود إلى عكوفه على روائع الشعر العربى القديم عكوفاً اكتسب فى تضاعيفه السليقة العربية الأصيلة والروح العربى الصميم بكل مقوماته . ونراه فى أوائل حياته ، وكأنما انطبعت فى نفسه أحاسيس الفارس العربى القديم بكل ما اتصل بها من حماسة ووصف للحروب وحب وخمر وشعور بجمال الطبيعة . وتنفذ الشكوى والسياسة والمشاعر الوطنية إلى شعره منذ عمل ياوراً بالقصر ، ويرسل زفراته وزفرات أمته ناراً متأججة . ويُنْفَى إلى سرنديب فيَشْدُو بغناء حزين مصوراً حنينه الدَّفين ، باكياً زوجه قُرَّة عينه ومن اخترمهم الموت من أصدقائه بكاء يَعْتصره من قلبه ، ويرفع بصره إلى السماء مبتهلاً لربه زاهداً فى متاع الدنيا الزائل . وقد لاحظتُ أنه كان يعنى عناية شديدة بِصَقْلِ شعره حتى تَسْتوى نماذجه كاملة محكمة ، وهو صَقْل جعله يكثر من تنقيحه ، مُدْخلا فيه كثيراً من التعديل والحذف والإضافة ، حتى يصبح بناؤه وطيداً وثيقاً ونسيجه متماسكا متيناً . ونراه يُضْرم فيه روح العروبة بمحافظته على العناصر الشعرية القديمة ، مع مَدّ جنباتها وتحويرها تحويراً بديعاً للتعبير عن وجدانه ووجدان قومه وما أثَّر فى نفسه من الآداب الفارسية والتركية والمخترعات العصرية وأمجاد أمته التاريخية .

وخرجتُ من ذلك إلى بيان منزلته الشعرية وكيف أنه يُعَدّ حامل لواء الشعر العربى الحديث ، مهما اختلفت مدارسه وتفاوتت مذاهبه بين المحافظة والتجديد ، إذ يُشرف عليها جميعاً وكأنه المنارة الهادية بأضوائها إلى الطريق القويم . ولا أغلو إذا قلتُ إنه هو الذى مكَّن لمصر أن ينشأ فيها شوقى وحافظ وغيرهما من حواريِّيه وأن تحتلَّ مكان الزعامة فى الشعر العربى الحديث . ومن أهم ما يروع قارئه الصدقُ

فى تجربته الشعرية ، وحقًّا كان يُمْعن فى استخدام العناصر الشعرية التقليدية غير أنه إمعانُ الرَّمْزِ عن المشاعر لا إمعانُ الجمود والتقليد السقيم ، إمعانٌ يزدوج فيه القديم والجديد والماضى والحاضر ليتوهَّج الشعر توهجا يزيده جمالا وروعة . ويسند الصدقَ عنده براعة تصويره للمشاهد الحسية والمعنوية . وتصويره لمشهد حنينه إلى وطنه يُعَدُّ من فرائده التى تصعد به إلى ذروة الشعر والفن . وروعتُه الكبرى موسيقاه التى تستحوذ على كيان سامعه برنينها الضخم المستطيل حيناً ، وحينًا آخر بألحانها العذبة الرشيقة .

وقد يعجب القارئُ حين يعرف أن الجزء الثالث من ديوان هذا الشاعر الذى أكسب مصر مجداً أدبيًّا محققاً لما يُطْبَع ، وهو الآن بيد الأستاذ محمد شفيق معروف يحاول إخراجه ، وكان قد اشترك مع الأستاذ على الجارم فى إخراج الجزءين : الأول والثانى ، وقد أطلعنى مشكورًا على هذا الجزء الذى لا يزال مخطوطًا لم يَرَ النور ، وانتفعت به . وإنه لجدير أن يُنْشَرَ سريعًا وفاءً لدَيْن هذا الشاعر العظيم الذى حمل راية تحررنا الحديث فى الشعر ، وكان من الحَمَلَة البَرَرة لراية تحررنا السياسى فى الثورة العرابية . ولعلى أكون بدراسته قد أدَّيت بعض ما له من حقٍّ على جيلنا المعاصر . والله — وحده — ولىّ العَوْن والتوفيق .

القاهرة فى ١٥ من أغسطس سنة ١٩٦٤ م .

شوقى ضيف